

لامرتين في ربوع الشرق

في زجعة المحاضرة التي ألقاها، ماريوس بك شيل في الجامعة التي ألباها الناسي الكاتوليكي للشبيبة السورية في فندق الكونتانتال مساء ٢٢ مايو سنة ١٩٤٣ برآة شاعر القطرين خليل بك مطران وذلك احتفاء بمرور مائة سنة على زيارة لامرتين للشرق وقد حضر الاحتفال جمهور كبير من نخبة السوريين والسوريين يتضمّن مندوب المفوضية الفرنسية ومندوب وزارة المعارف المصرية، والترجمة بقلم الاديب عادل النضبان

قد يكون من الاسئلة إليكم ايها السادة ان احاول تعريفكم بلامرتين قبل الوصول به الى الشرق. فحسي ان اقول لكم ما ذكره عنه جول لومتر في ختام البحث الذي جعله بشعره في كتابه « المعاصرين » حيث قال : « ان لامرتين هو أعظم الشعراء ان لم يكن أنبغهم » أضيفوا الى هذا ما كتبه عنه الناقد المشهور لويس فيو بعد وفاة لامرتين بايام قلائل قال: « ان لامرتين منذ اكثر من عام لم يكن بين احياء هذا العالم فلم يفعل الموت به الا انه أقتل نفسه حتى لكأنه احتاج الى زمن طويل لكي يستطيع ان ينقل بقايا هيكل كان عظيماً »

وخلاصة ما فاه به هذان الناقدان ان لامرتين كان رجلاً عظيماً وشاعراً عظيماً وحديدي اللية معكم مقصور على سياحته في الشرق وتلك فاني لن احجم في تصوير الرجل كما كان عن ان أوقفكم على آيات من تثره وشعره بالقدر الذي يسمح لي به وقتكم

كان لامرتين أعظم شاعر حطمت قلبه الاحزان والحسرات ولعل سبب رحلته الى الشرق هو ذلك الحزن الذي كان مستمر اللهب بين ضلوعه لوفاة وحيدته في باريس عقب عودته من لندن وكان قد ذهب اليها مستشفياً صحبة والده . لم تمنع هذه الضربة القاضية لامرتين من ان يفكر في رحلته الى الشرق مصطحباً ابنته جوليا العليمة راجياً لها ان تلتقي في بلاد الشمس للمشرقة والنسيم العليل ما لم تلقه في بلاد الضباب . اما حبه لابنته جوليا فقد كان حباً يقارب العبادة وهذه قصيدته المشهورة في رثائها قطعة من فؤاده نظمها آيات من الشعر في البكاء عليها والتفجع على غمها الدابل . وقد يكون الدافع الحقيقي الى زيارة الشرق هو كون لامرتين شرقياً بطبعه قلبي داعي الحنين الى الشرق واسقائه على ما ذكره جول لومتر في هذا الصدد قال :- « ان لامرتين شرقي كما اكثر رؤساء الشعوب فهو كباقي افراد أسرته كبراً عن كابر طويل

القامة اسود العينين افنى الانف مرتفع بطن القدم
« وقد نشأت أسرته في بلدة ما كوني وهي لا تزال عربية حتى ايماننا هذه . ولقد جاءه في مذكرات كورندي انه في سنة ١٥٧٢ عرفت هذه البلدة رجلاً يسمى الأمرتين وهذا الاسم

مركب لا شك من كلمة الله ولامرتين فيستدل من هذا على شرفية هذه الأمرة «
ومهما يكن في كلام جول لومتر من افعال التكررة لاثبات شرفية لامرتين فمن منا لا يرضى
به ولا يقبل ان يكون لامرتين واحداً منا. اما هو فقيل بمخاره من مارسيينا ذكر السبب الذي
حدها على زيارة الشرق فقال :

«لم اسمع صحبات انشعوب يتجاوب صداها في ارجاء ذلك الارض الخالد لم ار من فوق ذرى
لبنان تلك انعقان تعظم بقبة السماء وهي في اعالي قصور صور الشاهقة لم تتحلي أن أرى تدمر
التي ليس لها اليوم إلا صدى اسمها كذلك لم ارسل صوتي في جوف مملكة سمون الخالية الخاوية «
كل هذا اراد انشاعر ان يراه كما كان يحلم دائماً ان ينظم ملحمة يلهمها بها الشرق ولم يكن
احب على قلب هذا الشاعر من ان ينقش على قلبه هذه الكلمات الثلاث : الله والحب والشاعر
في الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين من يوم ١١ يوليو سنة ١٨٣٢ أقلع المركب الست
Alceste بلامرتين وزوجته وابنته جوليا يصحبه ثلاثة من اصديقه وهم اميديه دي پارمفال
Amédée de Parseval والمسيو دي ككاماس M. de Capmas والطيب دي لاروايير
Dr. de la Royère. ليس السفر بالمرأكب الشراعية مثل السفر بالمرأكب البخارية ولذلك اضطرت
الرياح المعاكسة مركب هؤولا المسافرين الى الموقوف وقتاً طويلاً فكان القضاء قدر اللامرتين ان
يحمذو حذوا اميرس وورجيل وان يستلم استسلام عولوس وقد ذهب يبحث عن محبوبته ايتاك
وما ايتاك لامرتين الا الشرق الذي يسعى اليه ليجلو عبقريته ويترك لهذا العالم عالم الظلمات
والشك والماضي ثروة تغذيه وتفتح فيه روح الشباب مدة قرن كامل . ذهب لامرتين الى الشرق
طالماً على غرار قبليون ولكنة ذهب لتثبيت مجده ان لم يكن في سبيل الحصول على مجد جديد
بقي المركب الشراعي يقتتل ركابه بين جزيرة كاليسو ومائظه وبلاد اليونان واقريطس
ورودس حتى حاذى في آخر اغسطس شواطئ كارمانيا وقد بدت ركابه القمم العالية البيض
التي ذكرتهم بحبال سويسرا. وفي اثناء مرورهم كانت تبدو لهم وجود نساء حسان جلسن في
ضوء القمر على سطوح المنازل فرأوا في عيونهن عيون لساو ايطاليا ولكنها أكثر عنوية
وحياة وحانة كما رأوا في قدودهم قدود نساء الاغريق ولكنها أكثر لياناً وفي جباههن
العريضة حبه حسان بلاد الشجان . وفي ظهر يوم ٢٧ اغسطس وصلوا الى قبرص وفي ٥ سبتمبر
بعد ان قضوا ٥٦ يوماً في عرض البحار بدا لهم لبنان بحباله البيض العالية تتوجها قمم صين
المرتفعة حوالي ٣٠٠٠ متر فوق سطح الارض فأخذت لامرتين نشوة من السرور لا توصف
رجاها ان تعود الصحة الى ابنته جوليا اذا ما استقرت في هذه البلاد الجميلة الساحرة سنة او
سنتين . وفي الساعة التاسعة من صباح يوم ٦ سبتمبر رما المركب في مرفأ بيروت وهي مدينة
عائمة على مرتفع من الارض تفسل اقدمها مياه البحر الابيض المتوسط فيدنت لهم منازلها

الجزء المنسقة وقد امتد الى شرقها سهل خصيب واسع ينتهي عند سفوح سلسلة من جبال لبنان. اما البناء فيكتنفه لسان من الارض يمنة عنه عصف الرياح وعلى امتداد الشواطئ المجاورة قامت اشجار الخروب والتين والبرتقال والزمان الى مجموعة من الشجيرات التي يجملها ابناء الغرب وهناك على اول فتر من الارض قامت اشجار الزيتون وعلى بعد فرسخ من المدينة تبدي سلسلة جبال لبنان بالهوض فافرة افواها تسكب منها الانهار هذه تذهب الى صور وصيدا وتلك الى طرابلس واللاذقية والقسم اللامعة التي يغطيها السحاب تشبه قم جبال الألب الداغمة الجليد كان لامرتين يحمل كتب توصية لتقتل فرنسا بيروت المسيو جي ولكن اتفق ان كان الميسو جي متعباً عن بيروت في ذلك الحين فاستضاف لامرتين واصحابه الميسو جوريل مترجم القنصلية. ولقد اوتت في قلب لامرتين تلك المناظر التي شاهدها لاول وهلة بعد سفر طويل طاصف. فانها لساعة ممتعة تلك الساعة التي يسفل فيها المرء بعد سفر مضن شاق لا يشبه ابداً سفارنا التي لا تستغرق في هذه الايام اكثر من ثلاثة ايام او اربعة على تلك القصور العائفة من مثل شامبرليون واوزونيا، أجل انها ساعة ممتعة عندما ما يبلغ المرء بلاداً يجملها فيأخذ يجمل الطرف حوله مبهوتاً كذلك كان تأثير البلاد التي وصل اليها لامرتين على ذلك الركب الذي ما رححت تتفاذه الامواج في مرفأ بيروت المضطرب حتى قدر له ان يعود بجثمان ابنته بعد انتهاء الرحلة. وان امرنا نطأ قدماه الارض بعد قضاءه اياماً في عرض البحار لكالعليل الذي يقضي ايام النقاها بعد مرض عصال قال لامرتين يصف اول يوم من وصولهم :-

« لقد قضينا ليلتنا في صفاء وغبطة ونحن في ضيافة مدام جوريل الحليية الحسنة التي قد حافظت على اللباس الفاخر للساء العرب من منديل يعصب رأسها الى صدرية مزركشة عُلقت في وسطها خنجر جميل وكان هذا اللباس الشرقي يزيد في جاهلها وبهائها»
غير ان لامرتين لم يكن ليرى الحسن الا في ابنته جوليا فاسمويه يقول: «لم أجد أجل من ابنتي جوليا في لباسها الحليي المؤلف من ثوب ذهبي مخطط تنفرع منه شُرطُ مزركشة محلاة بالؤلؤ ضمن سلاسل من الذهب هذا وقد استرسلت صفار شعرها على كتفها واخذت تجمل الطرف بيني وبين لها مبتسمة ولسان حالها يقول ما اجلني»

سألت مدام جوريل لامرتين ان يجلد زيارتهم بتذكارة ترسله الى ابيها بحلب نظلا بنفسه قليلا ونظم القصيدة المشهورة التي عنوانها «عربية تدخن الترحيلة في بيتان من بيتان حلب» كان المنزل الذي اختاره لامرتين لسكنه في الحلي الذي تقوم اليوم فيه مدرسة راهبات الناصرة وقد يكون كثيرات منكن «ياسيداتي قد تلقين علومهن» هناك وهي تبعد مسير عشر دقائق عن البلدة ويكتنف الطريق المؤدي اليها سلسلة من الأشجار العظيمة الرامية بثأرها على رؤوس المارة. وكان المنزل وهو مؤلف من خمسة بيوت متفرقة تجمع بينها سلام خشبية او

بعض ثمرات، يشبه مجموعة «فيلا» ايطالية على طراز تلك التي تراها على شواطئ لشرون
 وصل لامرتين الى سورية بعد أشهر من افتتاح ابراهيم باشا الكبير لها وكان هذا القائد
 العظيم يكرم العلم والادب شأن جلاله ملكنا فؤاد الاول فاسمع بقدم الشاعر العظيم حتى
 أمر كل القواد المصريين ان يحضروا به ويكرموا به والاكرام اللائق به وكان لامرتين إذ ذاك في
 ابان مجده فيها نشره من «التأملات» و«الانغام» وهو منذ سنة ١٨٢٩ عضو في المجمع العلمي
 محل الكونت دي دارر. وبعد وصوله الى بيروت بأربعة أيام زاره الحاكم المصري حاملاً
 اليه تحية سيده ورعايته طول مدة اقامته وكان لامرتين قد سمع بإبراهيم باشا وعظمته وكانت
 الألسنة إذ ذاك تتناقل عنه الحكاية التالية :

لما دخل ابراهيم باشا بيروت وصار على مسافة قريبة من بابها اعترضت سيره حية عظيمة
 زحفت على الرمل حتى وصلت الى جواده فاجعل هذا وهرع بعض العبيد الخفاة الى ضرب
 الحية فاستوتقمهم ابراهيم باشا بأشارة منه ثم استل سيفه وضرب به الأفعى فسطرها لفنين
 وروى لنا لامرتين بعد هذا ان الحشد صاح صيحة إعجاب بشجاعة قائده الذي ابتسم وأتم
 سيره متفائلاً بالنصر الذي ابتدأ بهذه الحادثة

فتنتم الامير الفرنسي (كما كانت العامة تسمي لامرتين) فرصة تمتعه برعاية ابراهيم باشا
 وذهب يزور اللادي استير ستانوب في عزلتها في جون

كانت اللادي ستانوب ابنة اخي ولیمیت (الوزير البريطاني). فبعد موت عمها لم تستطع ان
 تحصل حياة الالم فهجرت ابتكراً الى غير رجوع

جاءت الى الشرق وهي فتاة في ريعان الشباب تتمتع بقسط كبير من الجمال والثمن والشجاعة
 والذكاء فاستقبلت استقبالاً حافلاً حينما حلت وكانت رحلتها الى تدمر عاصمة الزباء وإقامتها
 هناك مدة قد اكسبتها لقب ملكة تدمر. وبعد حوادث عدة اظهرت فيها من الشجاعة
 والاستخفاف بالموت ما طبعته بذكره الالسن انقطعت بما بقي لها من ثروة في دير من اديرة
 جون كان حاكم عكا قد وهبها ايامه. ود لامرتين بنفسه الشاعرة ان يزورها ولو قطع عليها عزلتها
 لما هي فكانت تأتي كل زورة تفكر عليها مناه حلوتها غير ان شهرة الشاعر حملتها على ان
 لا تتأخر في استقبال زائرها. وكان ذلك في الساعة الثالثة في يوم من ايام أكتوبر سنة ١٨٣٢
 فاستقبلته في منزل اشبه بركر اللسر تحيط به ضلعات لا يستطيع معها ان يتوضح قسامات
 ذلك الوجه النبيل. وما كاد لامرتين يصل حتى نهضت من منصفها وخفت الى استقباله وكانت
 اذ ذاك في السنة السادسة والحسين من عمرها الا انها ما زالت مشرقة الوجه وضاحة الجبين.
 ان المشيب ينهيج بالندارة والزهو ولكن الجمال اذا كان ممثلاً في اتقد المشوق والقسامات المنتظمة
 والمظنة فهو يتغير مع العمر ولكنه لا يزول. تجاذب الزائر والمزود الحديث فكان من كلامها:

كان يجول في خاطري ان كوكينا صديقان وها اني ارى والبشر يضم قلبي ان حاجسي لم يخطيء فان قسما وجهك التي اراها ووقع حظاك الذي سمعته وانت تجتاز للمرء كل هذا جعلني الا اندم في قبوري زيادتك. ان لي مشاركتك في علم التملك فهل تريد ان انظر في مستبلك غير ان لامرتين الحكيم كان يخاف جداً من الحقيقة وكان يحب الحياة حباً جماً ولو انه كان يشتمل الموت في كثير من قصائله تخشي ان يتقلص عنه ظل السعادة في استماعه لعرافة ولو انها اللادي استيرستاهوب فقال : —

حاذري يا صديقي اخشى ان انا استوضحت امر مستقبلي مخلوقاً من الناس ان ادنس هيكل الله الذي يخفي لي هذا المستقبل . انا لا اعتقد الا بالله والحرية والنصيلة وليس غير الله من يملك الحقيقة اما نحن فلا نملك منها الا الايمان. ان المسيح الذي اومن به قد جلب للارض الدين القويم المسح الذي لم يعرفه من قبل ذكاه البشر فالدين يعرف بجاهه ومبادئه فتمار المسيحية هي غير محدودة كاملة الهية فالدين نفسه انذ هو الهى قالت لكن ارى العالم في الاجتياح والياسة والدين حسن النظام الا نشعر ان في تنسك حاجة الى المنقذ المنتظر ؟ قال :

ليس من يشكر من النظام الاجتماعي والسياسي والديني شكواي منه ولئن انتظرت انت المهدي فاني انتظره مثلك بفارغ الصبر. اني ارى كما ترى في معتقدات الانسان التقلقة في ظلام افكاره في خلو قلبه في هياته الاجتماعية في كل هذه التقنيات السياسية ارى في كل هذا عناصر انقلاب شديد . ولكنني اعتقد ان الله يظهر دائماً في كل ما يعجز عنه البشر . اعتقد بمعتقد مقبل ولكنني ارى فيه المسيح الذي تنبأ عنه الله فانا انتظره بشوق يشوق شوقك قالت اعتقد كما تهوى فاني استشرت الكواكب فقالت لي انك شاعر وان لك كواكب عدة هي كلها متحدة على خدمتك واحضادك فتستود انت الى الغرب ولكن لن يطول بك المقام حتى ترجع الى الشرق فهو وطنك . انظر الى قدمك الى بطنها المرتفعة عن الارض ارتفاعاً يمر من تحت الماء فهي قدم العربي قدم الشرقي

وعلى هذا استمر حديثها الاذع الغرب بما لا طائل تحته فان اللادي ستاهوب شعرت بعطف شديد على لامرتين نخصته بضيافة شرقية كريمة وطافت به في انحاء حدائقها الجميلة اللابسة من وشي الطبيعة ثوباً سندسياً وقد انتشرت فيها رائحة الياسمين وازدانت ارجاؤها بالبرك من الرخام تنسكب فيها المياه كسيل من البخور وقامت الاشجار منبراً لكل انواع الطيور . وما زالا يطوفان حتى وصلا الى باب مغلق ففتحته وأرته جوادين من الجياد العربية الاصيلة كانت تقبل لهما وهي العرافة مستقبلاً باهراً ثم لما انقضى الليل ودعته بقولها : —

تذكر انك تارك صديقة متعزلة في لبنان ثم حيت وحياها بتحية عربية وخرج وزار لامرتين

بعد اللادي ستانوب الامير بشير الكبير وقد احتفل اخيراً في بيت الدين بتذكار هذه الزيارة ان الامير بشير هو لا شك بعد الامير نجر الدين اكبر حكام لبنان شأنًا ولئن كان حذرًا زادهاء وحياة مثل لويس الحادي عشر فلانه اراد ان يجعل من لبنان بلداً كبيراً ولم يكن ذلك سهلاً في بلاد كورنية تتلذذ بها الالهواء الشرقية والمطامع الاوربية المختلفة الاغراض فهو اول من عبد تلك الطرق التي كانت دروباً تنغم والبنغال فاستطاع الناس في عهده ان يتجولوا في انحاء الجبل بلا خوف ذلك هو الشرط الاساسي لقطر يريد ان يتقدم كذلك كان من العدل على اعظم جانب فقد ضرب على ايدي المستبدين من امراء الجبل ولعل احسن ما سجل له بمداد الفخر ان لبنان على عهده كان ملجأً امنياً لضحايا الدين والياسة

اعتم الامير بشير مدة نصف قرن بالقيام بعشرات سنه ولقد اضطر اربع مرات الى ان يهجر لبنان فكان يرجع في كل مرة قوياً شديد العزم وافر الهيبة والامير بشير هو مثال صادق للامير الشرقي الذي يلتي في القلوب الروعة والهيبة والاحترام بدهائه وذكائه وقوته حياً ولياته حياً آخر فاستطاع ان يضمن لبنان حياة رغيدة ولو انه اثار حفاظ الاحزاب المختلفة بعضها على الآخر وكان في الاساطير اللبنانية يلقب بنابليون سورية حتى تنازل عن الامارة بعد مؤتمر اوربا سنة ١٨٤٠ فسمح له ان يعتزل الحكم في جزيرة مائله التي انتخبها مقرًا له ثم سار منها الى القسطنطينية فأت فيها سنة ١٨٥٠ وعمره ٨٧ سنة وكانت مدة حكمه ٥٣ سنة وذلك من سنة ١٧٨٧ الى ١٨٤٠ وهي مدة ما قضاها في الحكم حاكم قبله

كان الامير بشير في غضون زيارة لامرتين للشرق في ابان مجده قد اتخذ بيت الدين مقراً لها وها نحن اولاء نتبع لامرتين في زيارته لهذا الامير العظيم
تقوم على جاني الطريق سلسلة جبال يبلغ ارتفاعها ٣٠٠ الى ٤٠٠ قدم كأن يروق البشير قد فصلها حديثاً بضربة من مطرقة

بعد مسير ساعة في هبوط وصعود يصل المرء الى ذلك القصر العظيم قصر بيت الدين بالقرب من دير القصر. رى المشاهد هناك وادياً عميقاً واسعاً يفيض بضرة وخضرة وقد انتشرت على سطوح الجبال بعض القرى ثم اذا انجح ازأني بنظره نحو الافق شاهد البحر من فوق قم بعض التلاع وفي بطن الوادي مرتفع من الارض يقوم عليه القصر العالي كأنه أحد الابراج يحيط به صخور قد نبت بين شقوقها المشب الاخضر وقة القصر تشرف بعظمة على بقاع بيت الدين وكأني بالامير كان يعنى بالعظمة حتى قصره بكل ما يدل على ذلك وجلب له المياه ياتية يبلغ طولها ثلاثة فراسخ اما غفانة اسطبله وعدد العبيد والقصص فيه لحدث عنها ولا حرج فقد تناقلتها الألسن على انها أساطير لغرابتها

في زوايا القصر ودخله تحدر عيون المياه وفي الصدر بعد سلسلة من الاعمدة الموصولة

بالمهديد والرجاح يشاهد الداخل يبرأ هائلاً قد أسند رأسه الى قدميه المشكبتين ولا شك ان الامير قد استعار نظره الحاد من هذا البر الجاهل على انه لم يعلق لامرتين
 كان الامير جالساً في زاوية البهو على مضجع أحمر وهو شيخ جليل حاد النظر اغبر اللحية زاهي اللون تتدفق منه الحياة وكان مرتدياً ثوباً أبيض ومتسطقاً بنطاق من الكشمير وقد ظهرت بين طيات ثوبه قرب خصره قبضة خنجر طويل عريض محلى بياقة من الالماس فيشكل برتقالة. وكان لامرتين قد قدر في الامير ثقافة ومعرفة بالامور وذكاه في تصرفها قد يندر في ذلك العهد ان يجتمع في امير شرقي. وكان قد عقد له قبيل ذلك على حسناء تبلغ من العمر ١٥ سنة وكان هو إذ ذاك في التاسعة والستين من عمره وعلى زعم لامرتين انه كان في الثانية والسبعين ولكن لامرتين لا يسأل عن التدقيق وانما يسأل على الوحي والالهام. غير ان هذه المسناء قد يكون عمرها ٢٠ سنة اذا اتبعنا قاعدة اجدادنا في معرفة السنين من ان سنة المرأة ١٥ شهراً استقبال الامير بشير لامرتين استقبالا فخماً فطاف وايامه على كنوزه في قصره الملكي حتى خيل للشاعر الفرنسي انه يطوف في قصر من قصور الف ليلة وليلة وبعد حديث طويل اعجب فيه لامرتين بحكمة الامير ونبه دعاه هذا الى مرافقتك الى قاعات الحمام
 لن اصف لكم ايها السادة هذه القاعات فاتم تعرفونها في كل حمامات الوجهاء في الشرق. وكأني بالامير اراد ان يفرق في اكرام لامرتين فدعاه الى الاستحمام معه هو ورفقته غير ان لامرتين تنحى بلطف عن هذه الدعوة لانه رأى فيها مظهراً من مظاهر الحفاوة التي اراد الامير ان يخصصه بها. وانتهى بلامرتين المطاف الى اسطبلات الامير يسمع منها صهيل الجياد العربية الاسبلة ومن لم يزر هذه الاسطبلات او اسطبلات دمشق فلا يعرف شيئاً عن الجواد العربي ومن فاته ذلك فليتعقد عليه في قصيدة لامرتين التي يصف فيها الجواد «سلطان» وهو الجواد الذي اشتراه لامرتين لابنته جوليا وكان آخر زهرة قامت بها عليه زهرتها في انحاء القديس ديمتري رجع لامرتين الى بيروت في ٧ نوفمبر واستطاع في مأدبة اديها بعض قناصل بيروت ان يرى ابنه الامير بشير نزولوا الى بيروت بأمر من ابراهيم باشا الحشد شوكة من محاولون شق عصا الطاعة. قال لامرتين بصمهم :

« ان هؤلاء الامراء ولاسيما البكر هم عنوان على الحضارة الشرقية التي هي في مستوى حضارتنا بل هي أقدم واثق مورداً واكمل اصلاً فانه يبدو لعين الرائي التزيه ان ليس هناك فرق بين ما عندنا وعند الشرقيين من نبل وقسوة حكيمة في التقاليد والعادات فنحن قوم حديثو الحضارة خرجنا من حضارات قاسية ضخمة نافسة امامهم فتشعر عند رؤيتهم انهم ابنا بيت أصيل وحفدة قوم عرفوا منذ القدم بالحكمة والفضيلة »

علينا نحن الشرقيين ان لا نؤخذ بجبال هذا للده وان لانتشي برحيقه المسكر فقد يحتاج

ال تحقيق وامعان نظر - اما الاسرة الشرقية والثناة الشرقية فقد وسفها لامرتين بما يأتي :
 « الاسر القاطنة في سفوح الجبال ليس فيها أثر من الوحشية - والقروي منهم أعلم من
 القروي في اريافنا فضلا عن انه الين تريكه واكثر مسائلة واقدر على العمل وأصبر - وكثيراً
 ما رأيت في الحقل وجوه نساء وقتيات ما كان زفافيل ليراهن في احلامه الغنية »

لم يخطئ الشاعر الذي يقول في وصف سرورية

« ان بلادي هي الارض التي ينبعث السحر من عيون فاداتها الروائي يشبهن العذراء

في جهاها الخالد »

سُحر لامرتين بكل شيء رآه في ربوع الشام فلاجب ان تقرأ في « هبوط ملك »
 كل الانعام السحرية التي استلهمها لامرتين من لبنان وأهداها اليه . وصف لنا لامرتين جمال
 جبال القديس ديقري ونهر بيروت يوم كان يتزده مع ابنته جوليا في تلك الانحاء فلما جابه
 تلك المحاسن الطبيعية الخلابة لم يستطع الا ان يصيح باعجاب

« اللهم ما اعظمك ان في كل بقعة من هذه البقاع شعاعاً تمكسه تلك المرأة التي تصورك فيها تمسك »

طالما رددت الافواه صيحات الاعجاب والدهش امام جمال الطبيعة فاباك بالمنبع البعيد

الغور اللانهاي الذي يفيض بذلك الجمال . شاركت لامرتين ابنته جوليا في اظهار ذلك الاعجاب

فلم تملك هي ايضاً ان صاحت قائلة « ما اكرم الله الذي قدر لي ان اشاهد هذه المنظر من الجمال »

والحق لا يظهر صريحاً نيلاً الا على افواه الاطفال ولكنها كانت التزهة الاخيرة التي

قام بها لامرتين مع ابنته جوليا التي يحبها حباً يتقارب العبادة . في ٦ ديسمبر سنة ١٨٣٢ في

ذلك الوقت الذي كان يحيل فيه الى لامرتين ان ابنته جوليا متمتعة بالصحة والعافية لفظت

روحها بين يدي والديها في المنزل الذي اختاروه في ضاحية من ضواحي بيروت حيث ظنوا

انهم يجدون فيه اسباب السعادة والهناءة . وفي شهر مايو من السنة التالية سار المركب أليست

Alceste الذي جاء بهم الى بيروت في سبتمبر سنة ١٨٣٢ يحمل الى خرنسا جثمان الفتاة المحبوبة

حيث دفن في مدفن العائلة في سان يوان . اما لامرتين وزوجته التاعمان فقد احادا الى خرنسا

في الوقت نفسه على المركب لاسوفي La Soplue

كذلك اراد الحزن والاسم ان يظل لامرتين متعلقاً بالشرق ووطنه الثاني

قلت لكم ان لامرتين كان يظهر اعجابيه حينما حلّ واينما انجبه سواء كان ذلك فيما كان يراه

من جمال وروعة او فيما يقف عليه من اخلاق الناس . واذا رغبتم ان تطلعوا على رأي لامرتين

في الطائفة المارونية التي رعاها في هذه الآونة شيخ بكركي الجليل فما كم ما قاله في هذا الصدد :

« ان الشعب الماروني يؤلف شعباً منفرداً في كل الشرق رجلاه طوال القلعة وسام الطلعة

لهم نظرات تدل على الصراحة والفخر والتمامة حلوة فطنة عيونهم ذرق وانوفهم قفي ولحائم

شعر وحركتهم نبيلة وصوتهم خطير وعاداتهم تدل على التهذيب والادب فكانهم جالية اوربية وماها النهرين قبائل الصحراء . على ان قسامهم عربية وان من يمر بقرية من قرانم ويرى الشيخ جالاً امام داره ويسمع صهيل جواده ويشاهد اغنيان القرية تحيط به وهم لا يسون اغلي فيلبهم وعمامتهم ومتقلدون خانجرهم لا يشك الا انه امام شعب متحدر من سلالة الملوك

«ان الموازنة هم ابطال شعجان ميلون بطبيعتهم الى الغزو والتك كباقي سكان الجبل فاذا دافعوا عن جبلهم دافعوا عنه دة رجل واحد ولا مغالاة اذا قلت ان الباني هو شعب بنسبه»
يقال ان لامرئين تثنى شعراً بوادي حمانا وهذا خطأ فان اشهر قصائد لامرئين من مثل «التاملات» و «الانعام» نظمتها قبل سفره الى الشرق ولم ينظم بعد عودته الا مجموعته المسماة «روحى الاستعجاب» اذا استتبنا «جوسلان» و «هبرط ملاك» وليس في هذه المجموعة ما يدل على زورته للشرق الا قصيدة «الحسنة تدخن الترجيلة» و «القفر» و «سلطان: الجواد العربي» .
اما وادي حمانا فان لامرئين قد وصفه نثراً وصفاً بديعاً ساذكر لكم شيئاً منه

لما رجع لامرئين من فلسطين ونجح في ابنته جوليا فاخر ميروت في الثامن والعشرين من شهر مارس ميماً بعلبك ودمشق ماراً ثانية بغابات العنبر حيث يلتقي في كل خطوة بخطوها تفكرات مثقلة . ويرجع عهد هذه الغابات غابات نجر الدين الى ما قبل القرن الثالث عشر وهي ذات مساحات واسعة غربي المدينة وعند سفوح الجبال

صعد لامرئين الجبل بمحاشيته المثلثة من ٢٦ جراداً ومن ثمانية عبيد مشاة او عشرة كانوا خدمه وحراسه فرط بطرق صخرية صفر منقطه بلون وردي تبدو لتناظر اليها عن بعد انها متشعبة شوب بنفسجي وردي يسحر الالباب وليس ما يسترعي النظر في هذه الرحلة حتى بلغ حمانا . قال يصف هذا الوادي

« ان اروع منظر يستطيع المرء به ان يرى بدائع صنع الله هو وادي حمانا فهو وادى يتندى بهوة مظلمة عميقة حنرت في قلب صخور مرتفعة تكلمت بالثلج وهذا الوادي يتاز بسيل من الزبد يتحدر من قم الجبال ويحفظ في تلك الظلمة اخايد متحركة ساطعة تعرض قليلاً قليلاً حتى ينسكب سيلها من شلال لاخر ثم يتجه فجأة الى المغرب ويسيل في وادى مقع مجتازاً ما يعترضه من بطاح وتلاع

« ما شعرت قط بمجال لجبال قبل رؤيتي لهذه البقعة المنشعة بمجال حزين خطير حلو يختلف عن جمال البحر وجمال السهول فهو جمال يقبض المرء بدل ان يشرحه كأنه صورة للعاطفة الدينية في ايام الحزن بدل ان يكون صورة لعاطفة الدين ايام المناعة»

بعد ان فاخر لامرئين حمانا وصل الى سهل البقاع ثم ذهب الى زحلة حتى وصل الى بعلبك في اواخر مارس سنة ١٨٣٣ . ترك الكلام هنيئة عن بعلبك وارز لبنان وانتقل مع الشاعر الى دمشق

حط لامرتين رحاله بدمشق في اول ابريل فتجلت لديه هناك صور الشرق بأجلى مظاهرها . بسوء في ان الوقت لا يتسع لي حتى اقضي معكم ومع الشاعر وقتاً طويلاً في هذه المدينة . نستحي بدائمها من قصرها التي لا يدرك الطرف آخره وحواجزها الرخامية ما بين صغر وسرد ال غابات مادتها الي نهرها ذي السواقي والجداول التي لا تنحصر الي بساكنها المزهرة الزاهرة الي قصورها ومنازلها وقراها . ان العالم كتاب وكل خطوة نخطوها في اسفارنا تكتب لنا صفحة منه والذي لم يقرأ منه غير صفحة واحدة فهو لا يعرف شيئاً كثيراً ولذلك يجدر بنا ان نكتب باقي صفحات هذا الكتاب البحري

لتي لامرتين في دمشق طبيعة جميلة ونساء أجمل مما رأى حتى وصوله اليها . ان للمرأة في دمشق قامة كاملة كما في الثايل اليرمانية ونظراً تلبث منه الحياة كغادات سكان الجنوب وبساطة في الهيئة كما هي الحال في الشعوب الاولى فاذا اجتمعت هذه الشروط الثلاثة في وجه صبية حسناء منظم القصات كاد جلالها يكون كاملاً

يشعر المرء ازاء هذا المنظر الجميل بماطقة من الاغتباط ليست هي ماطقة الحب ولكنها ماطقة حب الذكاء حب الفن حب الابداع المحم في عمل كامل واتفق للامرتين ان يجلس الي فتاة قد خصها الله بكل هذه المواهب في مجتمع من المجتمعات التي صادت الي اكرامه والحنافاة به وكان الحقل غاصاً بشعراء البلدة فتنافسوا جميعاً في التضي شعراً بجمال هذه الفتاة الحسان فنظم لامرتين لهذا الغرض قصيدته المشهورة في حسناء دمشق . وكذلك كان لامرتين يتنقل من عجب الي أعجب ومن جميل الي أجمل حتى وصل الي الازر فتمت الثلوج المترائكة من ان يدنو منه

كان لا بد للامرتين وهو في طريقه الي الازر ان يمر بطرابلس الشام في ١٤ ابريل فاستقبلته هناك اسرة كاتغليس المشهورة وهي أسرة يونانية الاصل يزاول افرادها التجارة فضلاً عن انهم قدامن روسيا في طرابلس ولا يزال الخلف منهم في الشام مثلاً يحتذى في الكرم والنيل والجمال وصل لامرتين الي الازر الي أشهر ما جادت به الطبيعة ونفسي بجمال الكتاب المقدس والانبيا الذين كانوا يرون في الارز عدا القوة النباتية التي تجعله يعيش ابد الدهر ، تنسأ على شاة البريزة في الحيوان والذكاء في الرجل فكانوا يعتبرون الازر الهماً اتخذ له شكل الشجر

على ان هذا الشجر يقل قرناً قرناً في الوقت الذي وصل فيه لامرتين اليه لم يبق منه غير سبع شجرات يرجع عهدها الي العصور الاولى

وفي شهر يونيو من كل سنة يصعد سكان بشري واهدن واحوالهما الي الازر يسمعون القداس في ضلال الشجر . فا أجل تلك العلوات التي يرن صداها في تلك الغاب وما أجل ذلك الهيكل لجوار السماء . فاحب بالازر نخاله الذي ظلل ويظلل اجيالاً مختلفة من الناس كلها

تدعو الله وتسلمي للعلى بلهجات وحقائد مختلفة على أنها كلها تشيد بذكوره في أعماله الجليلة وتعبده في عجايب الطبيعة التي تظهر قوته وعظمته

ولما وصل لامرتين الى الارض كان ذلك حوالي ١٤ ابريل والشتاء لم يكده فانه يخشني فكان من الصعب جداً حتى لامرتين وحاشيته ان يقتربوا منه فظفرا مع الجهد الذي بذلوه على بعد ٥٠٠ او ٦٠٠ خطوة فلم يستطع ان يمس بيده بقايا الطبيعة والدهور فلهذا ذلك وآله

كنت اود ان اركبكم ايها السادة في هذا العلاء الالهى غير انى وعدتكم ان ارجع معكم الى بعلبك فلنرجع اذن الى ٢٩ مارس حيث كان لامرتين يمتاز قم صين الى ان انتهى بعد جهد ولاى الى قمر عين شمس

يمتد من ناحية الافق مجموعة خرابير صفر التقت عليها الشمس الغاربة حللتها الذهبية هي بعلبك المعجوبة بمجدراتها الضخمة واممدها العظيمة

يعجز قلم الكاتب وريشة المصور ان يصف تأثير هذا في نفس مشاهده في مجرى النهر بين الحقلول في جذوع الشجر الباقية على الزمن في كتل الجرانيت الاحمر والاغبر في الرخام الابيض في الحجر الاصفر في قطع الاعمدة والتيجان المحلاة بالبارز من النقوش في القبة والمعقود والتواعد في التابيل والاعمدة التي رماها عصف الرياح والزلازل كل هذا يتشبه المشاهد بقايا مملكة عظيمة هي صدى الماضي وعلامة الفناء

جن الليل وضرب بحيله ورجله وبدا التمر في السماء الناقية من ذلك المكان فكان لذلك السكون الخيم اكبر الأثر في نفس لامرتين وهو بين اتقاض طام يخيم عليه الموت والفناء بين اتقاض هي شهود خرس على ماض مجهول بين اتقاض لا تجارها اي اتقاض اخرى في العالم القوية والمظلمة لقد اوحى هذه النظر الى لامرتين بقصائد قرينة عظيمة توازي عظمتها وقد ختم احداها بقوله يتحدث عن نفسه

«لا اسمع وانا جالس على حافة هذه الهوة العميقة الأصغر الرياح تسمعها الهزء والسخرية لقد اتقل الامسى كاهلي واحنى رأسي وصانق به صمري فأصحت وانا لا فكر لي ولا قلب »
ايها السادة : ان هذه الابيات التي ختم بها لامرتين قصيدته ما هي الا نقشات شاعر لان لامرتين كان عليه ان يحيا ليذهب من سورية الى القسطنطينية ليذهب من قلبه الى فكره ففي سورية خلف قلبه والقسطنطينية خصها بفكره . لقد عاش لامرتين بعد ذلك عمراً طويلاً وكان يحلم دائماً وهو رجل الدولة والخطيب المسقع في تحقيق اماني قلبه وفكره

ولا اخال الا ان لامرتين لو عاش حتى هذه الايام لكان مغتبطاً مسروراً اذ يرى ان ما كان يضره لبنان من آمال وأمان قد تحققت، واذا ثبت له ان الشعب اللبناني فيما بذله من صبر وجهد وتضحية قد كوفى او سيكافأ — عنى ما نساء له — باستقلال هيبد حميد تام